## عنوان المحاضرة :راهن الشعر الجزائري المعاصر

**مدخل:** تعددت القضايا و المواضيع التي تناولها الشاعر الجزائري المعاصر– الوطن،المدينة ،السياسة،المرأة ..– التي شكلت راهن الشعر الجزائري بل أصبحت البعض منها مهيمنة على متنه الشعري و منها:

١–المدينة :عودة الشاعر الجزائري للمدينة،هي عودة للمكان الذي يضج بالحياة والحركة المستمرة، وهي مكان مركب من أمكنة متعددة،و فضاءات واسعة ،و علاقات متشابكة ،لجأ إليها الشعراء هربا من قسوة الريف و قد كانت المدينة التي يسكنها الشاعر—بغض النظر عن مكان ولادته–هي التجلي الأول في الشعر الجزائري المعاصر وعلاقة الشاعر بها استثنائية، لأنها هي النبع الذي يمتد في أعماقه ،و الدم الذي يسري في عروقه،وقد تعددت صورها و أشكالها فهي– قسنطينة– التاريخ و الماضي التليد المشرق ،الذي ضاع، عند الشاعر عبد الله حمادي،:

فسنطينةُ اهتزي فجمعك حافلٌ و مجدُك مأثور و شعبُك باسلُ
فمالي أرى طيفَ السكونِ مخيّما و ليلُك مكحولٌ و نجمُك آفلُ
بمن يهتدي ركبُ الأحبّةِ في السُرى و بدُرك منهُوك العزائمِ هازلُ
ألستِ التي كنت المنارة و الهدى لمن تاه في بحر الظنون يماطلُ؟
ألستِ التي خلّدت مجدًا و عبرةً و ذكرُك معسول وفضلك ماثلُ؟

***

فكانت وكان العلم فيها كشعلةٍ و كانت و كان العزّ فيها يشاكلُ

لقد اعتمد الشاعر عبد الله حمادي على تاريخ قسنطينة،آملا أن يعيد التاريخ نفسه،و يعود العز و العلم و المجد لها، وأن يتحول سكونها إلى حركة ،و ليلها إلى نهار ،دون أن يندمج في تجربة المدينة من الداخل ، بل اكتفى بملامستها من الخارج.

لكن الشاعر شارف عامر جعل مدينة بسكرة استثناء المدن الجزائرية،و العربية، وخلاصتها،و نسب إليها كل الصفات الجميلة ليس على مستوى نص واحد،بل على مستوى ديوان شعري بكامله،أو إلياذة تتقاطع في الكثير من المواقع مع إلياذة الشاعر مفدي زكريا، لقد خص الشاعر شارف عامر مدينة بسكرة بإلياذة كاملة،في(مائة وسبعين بيتا شعريا–١٧٠–)،وأعاد لمدينة بسكرة بأحيائها و قراها،مجدها الماضي ، و تمثل مدينة بسكرة المفردة جزائرَ مجتمعةً، دون أن يضيف أشياءً مميزة،على مستوى البناء أو الصورة الشعرية،فالشاعر كرر ما قيل،وحاول أن يرفع من مكانة مدينة بسكرة،لأنها مكان السكن و الإقامة،و لأن تاريخ الجزائر في مرحلة من مراحله السابقة ارتبط بها:

الحبُّ أنتِ و دونك الكون انتهى و الكون دون العاشقين هباءُ ..
من دجلة أو من فرات حدودها إن قلت ثالثة هي الزوراء..
إن لم يكن فمن الحجازِ ترابُها و القدسُ أنفاسٌ لها رواء..
الكونُ إذ يلقاك يسرد حبّه و شذى الكلام نصوصُه الأشلاء !!

وقد يهمل الشاعر الجانب الطبيعي و الجغرافي للمدينة، ليركز على تاريخها و ماضيها، مثلما فعل الشاعر محمد بن رقطان– من مدينة قالمة–، مع مدينة بجاية، حيث عاد إليها ليستلهم تاريخها و مجدها،وليبرز تاريخه الشخصي المستمد من تاريخ المكان :

بجاية المجدِ يا أسرارَ قـافلةٍ على دُروبِ الضحى أسرى بها القلمُ
و يا قرونا من الأضواءِ خالدة تمتدُ عبر ليالي المجدِ تبتـسمُ
أتيتُ أحمل أشواقا معطرةً بذكريات نشاوى زانها القـدمُ
بجاية المجدِ يا أصداء أزمنةٍ تظل في موكب الأيام تلتـئمُ

فعلاقة الشاعر الجزائري بالمدينة متعددة و متعدية عند هذا الشاعر أو ذاك، فهي المجد و الحلم و الأغنية من جهة ، و الحزن و الألم من جهة أخرى ، إذ لا يجد الشاعر إلا المدينة يرمي لومه عليها و يحملها ما جرى و يصفها بالخيانة و البرودة :

يا هذه المدنُ الساكتةْ

تفرّجي .. توهّجي ..تهيّجي

واخطفي هذا الرحيق البديعْ

و اسحبي من قلبي وردة

كانت جنوني .. كانت عيوني

كانت دليلي كلّما هِمت أضيعْ

خائنةٌ أنتِ يا هذه المدن

وباردةٌ باردة كالصقيع

و بالرغم من أن جلّ الشعراء الجزائريين من أبناء الريف و الصحراء ، هاجروا إلى المدن العامرة المختلفة، لظروف اجتماعية –عمل ،دراسة ، تجارة ..– فإنها تركت في نفوسهم أثرا بالغا ،وصل في بعض الأحيان إلى العدائية، لغياب الحب فيها ،و تراجع القيم الروحية، والفضائل الإنسانية.

فالمدينة الجزائرية،لا تفتح للشاعر أبواب الأمل،ولا تعطيه الفرصة للحلم و التغيير،و لو على المستوى الشعري خاصة في فترة التسعينيات، التي شاعت فيها الفوضى، و عمّ الخراب أرجاء مدنها التي كانت عامرة ،ولم يبق إلا الرحيل عنها،و الهجرة منها بشتى الطرق،جوا وبحرا، لأن الطرق البرية لم تعد آمنة، و قد كان الشاعر عبد القادر رابحي شاهدا على تلك الفترة التاريخية ، فسجل تاريخ المدينة:

أجوبُ المدينةَ

لا شيء غيرُ الخواءْ

غيرُ رحيلِ الحمامِ المتوّج من ساحة الشهداءْ

ومن ردهاتِ المدى

من سقوفِ العمارات

لاشيءَ

غيرُ الموانئ

غيرُ المطارات

غيرُ صفير السفائن

و هذه الصورة القاتمة و الحزينة للمدينة، تكررت في العديد من الدواوين الشعرية الجزائرية، التي تناول فيها الشعراء فضاء المدينة؛حيث تشابهت المدن الجزائرية،و أصبح الشعراء يلجؤون إلى التحديد الجغرافي لها، لأنها مدن حقيقية،وليست مدن خيالية،أو مدن شعرية لا توجد في الواقع .

و قد أخذ الشاعر الجزائري تجربة المدينة ،من شعر إليوت، و من شعر عبد المعطي حجازي الذي يعد من الأوائل الذين عنوا بتجربة شعر المدينة في الشعر العربي المعاصر ، إضافة إلى الشاعر بدر شاكر السياب،و صلاح عبد الصبور و عبد الوهاب البياتي...

فالمدينة عند الشاعر الجزائري جزء من عالمه الشعري، لا العالم كله ،كانت الوسيط الشعري الذي ترجم رؤيته من خلاله، و الملجأ الذي عاد إليه بعد أن رفضته البلاد ، فهي الغرام الجديد و الحب الباقي:

عندما رفضتني ليالي بلادِي

لجأتُ إليكِ

فاطبقي مقلتيكِ عليَّ

و لا تتركيني لهذي المدنْ

أريد اللجوءَ الغرامي إليكِ

فكوني ملاذِي و كوني لصدرِي وطنْ

فالشاعر خضير مغشوش،هرب من المدينة إلى حبيبته، ليسكن إليها كما فعل غيره من الشعراء الجزائريين ،وجعلها وطنا بديلا له عن المدينة ، لأن المدن الموجودة قاسية،غاب فيها الحب،و الأمن .لذلك فهو يطلب منها أن تكون ملاذه ووطنه و مكان اللجوء ليحتمي بعينيها من كل الفتن و المحن.

و مشكلة المدينة في الشعر الجزائري المعاصر كانت تعبيرا عن رفض الواقع ،وشكلا من أشكال التعبير عن متطلبات الفرد، و توقه للحرية و الانعتاق من ضغوط الواقع المرّ،و بيانا شعريا يفضح من خلاله الشاعر الواقع المديني،وهذا ما فعله الشاعر عياش يحياوي في قصيدته "المدينة البحر الريح.." التي سيطر الحزن و الألم فيها على الشاعر ، مكررا لفظ المدينة في كل بيت شعري من أول النص إلى أخره، ليبرز وطأة الوضع وشدة الحزن:

لا شيء في صمت المدينة غيرُ أحزان المدينةْ

الناسُ ماتوا من زمانٍ و اختفى صوتُ المدينةْ

زمن كأشباح ثوانيه .. كأنصابِ المدينةْ

و الشارعُ المغمورُ ..نهرٌ من أباطيلِ المدينةْ

آواهُ و انقلبتْ مقاييسُ الوجودِ بذي المدينةْ

الكلّ ماتَ ..البحرُ و الريحُ المعلبُ و المدينةْ

حتى الفضاءُ حدودُه انكمشتْ وضاعتِ المدينةْ

فتكرار لفظ المدينة،و جَعْلها لازمة عند نهاية كل بيت شعري له دلالاته النفسية،و الاجتماعية العميقة، على ذات الشاعر عياش يحياوي الذي تحولت المدينة عنده إلى رمز لكل شيء قبيح ، و بالرغم من ذلك فهي قد شكلت تجربته الشعرية،وأصبحت مفتاحا تاريخيا يساعد القارئ على معرفة التاريخ الحقيقي .

و لم يكن شعر المدينة في المتن الجزائري يكتفي بذكر أسماء المدن المرتبطة بأحداث معينة سياسية أو ثورية أو تاريخية ليتخذ منها رمزا شعريا وفقط،بل يذكرها بالاسم و بالصفة وبكل محمولاتها و يربطها بالمعاناة الذاتية و الجماعية،ولم يرفض المكان المديني لمجرد الرفض :

في المدائنِ لا أفقٌ يحضُننا

في المدائنِ نحنُ الطغاةُ العصاةُ

و لا زهرةٌ من أملْ !

في المدائنِ قالَ الأميرُ

و لكنّنا لم نقلْ !

لقد ضاعت المدن بعدما ضاع الإنسان في عالم المتعة و اللذة و الظلم و التهميش،و قل الشعراء الذين اتخذوا المواقف الصارمة تجاه المدينة،أو دافعوا عن قضايا الإنسان المفجوع فيها،كما قل الشعراء الذين أثارتهم المدينة في العمق ،و عبروا من خلالها عن قضايا الإنسان،و قضايا الذات، لاستعادة الحلم المفقود، و الفردوس الذي قد ضاع في غفلة منا،فجاءت عند أغلبهم كموضوع شعري موروث من الأدب الغربي أو المشرقي لا غير.و نتيجة لذلك عاش الشاعر الجزائري الغربة في مدينته ولم يجد إلا المرأة شاهدا على ما يجري وأنيسا و رفيقا يسلي به عن نفسه من هذا الضغط العالي الذي فرضته المدينة عليه:

أنظري يا أميرتِي

كيف المدينةُ تعوي

و كيف يفرُّ منا الزمنْ

و كيف تنتشي الصباباتْ

حين يعتريها الشجنْ

آه أميرتي

كم صعب أن نعشق حد الموتِ

و فجأة ينتهي الحب فينا

فتطردنا المدنْ

و تختفي السحابة بالمطرْ

و تختفي الفسيلة و ينتهي الشجر

و المرأة في المدينة غالبا ما تحمل دلالات سلبية ،سواء هي التي تركت الشاعر، أو هو الذي تركها ، فهي سبب مأساته و غربته المكانية ،والطرف الذي فشل في علاقته معه بعد فشله في علاقته مع المكان فالرفض الذي يعانيه الشاعر في المدينة رفض مزدوج ؛ معنوي ومادي، ولا يبقى له بعد هذا الفشل، إلا ذكريات تثير فيه الحنين إلى الماضي الذي عاشه معها في أرجاء المدينة ،فالشاعر و المدينة و المرأة و الزمن، عناصر تبرز من خلالها التجربة الشعرية و الصورة الشعرية :

غريبٌ على شرفاتِ المدينةِ

أجترُّ عهدًا تليدا ..

وحيدٌ على ربوة الماضي ،،

و حيدٌ،، أنوح على دِمْنة الذكرياتِ وحيدَا..

و أذكرُ يوم الْتقينا ..

و يومَ بعطر الزّمان انتشيْنَا ..

بدفءِ المكانِ احتميْنَا ..

ولقد تعددت صور وأنماط و أشكال المدينة عند الشعراء الجزائريين الذين حددوا جغرافيتها، و قد أخذت المدينة الجزائرية صورتها الشعرية من واقعها الاجتماعي الذي لا يختلف عن واقع المدن العربية الأخرى ،أو واقع المدينة أنى كانت، وإن كنا نجد مدناً تكاثف وجودها لدى بعض الشعراء، وأصبحت تكتسب صورة رمزية، و يعود ذلك أساسا لمقدرة شاعر دون آخر.

وعلى الرغم من هذا التعدد و التنوع ستبقى "صورة المدينة هي إحدى تجليات رؤية الشاعر إلى المكان – العالم –،هذه الرؤية الجمالية التي يفرزها واقع حضاري معين،في مرحلة تاريخية وتمارس المكتوب عبر مفهوم نظري محدد للشعر ".

فالشاعر الجزائري استعمل خطاب المدينة ،ليعبر من خلاله عن رؤيته و طموحه و واقعه و مرحلته التاريخية ،وهو يأمل أن تعود المدينة إلى طبيعتها على يد فارسها المنتظر ، ليعيد الأمل إلى الأمة التي فقدت كل جميل :

و تصرخ كلُّ المدينة ليلاً

سأبقى هنا انتظرْ

قرونا ،، قرونا

سيأتي فارسي المنتظرْ ،،

مع الريح يأتي ،،

سيأتي كسيْلِ مطرْ

سيأتي ليزرعَ ألف قمرْ ،،

فشعر المدينة عند الشاعر الجزائري، أصبح يعبر عن الواقع السياسي ،و الثقافي، و يرسم صورتها الحقيقية الغنية بالجزئيات و الدلالات من جهة، و صورتها المتخيلة و الحالمة من جهة أخرى .

...مازلتُ أسأل عن قلبِ المدينةِ

من بدَّلَ إيقاعَ الحبّ فيه؟

من أجّلَ فيه الربيعْ ؟
من صاغَ تضاريسَ العشق فيه؟
من غيّر طقوسَ الانتماءْ؟
ثم راح يوزع أحزانَها .. أفراحَها
كما يشاءُ على القطيعْ ؟

فالمدينة لا تصنع شعرية النص ، بل هي عنصر مهم في تشكيل هذه الشعرية، إن أحسن الشاعر التعامل معها، و توظيفها في سياقها النصي ،و حمّلها رؤيته بطريقة مغايرة للسائد، و مخالفة للأنماط المتعارف عليها .

**٢ –البحر**: يشكل البحر– دون غيره من الأنماط المكانية – علامة محورية، و بؤرة مركزية في المتن الشعري الجزائري المعاصر ، لطبيعة الجزائر الساحلية، و لأن معظم الشعراء من الشمال الجزائري الساحلي فشاعت الزرقة في أشعارهم، و حملوا البحر على أكتافهم و في أشعارهم على حد تعبير الشاعر علي مغازي:

رأيتُ البحر محمولاً...
على أكتافِ من كانوا يغنونَ هوانا
فلتذهبِ الدّنيا تماما
فغدًا تأتي ..
غدا
يأتي سوانا .....

و يتخذ البحر أشكالا و ألوانا و صورا شعرية مختلفة، ليعبر الشاعر الجزائري من خلاله عن تجربته و همومه ورؤاه ، فهو غير محدد بالمكان المنسوب إليه –أي بحر كان– تغير طعمه، و الشوق إليه مات في بلاد الأعاريب الضائعة ، التي ضاع فيها كل شيء، فتضاريس الفضاء البحري تغيرت مع تغير الإنسان و المكان،و طبيعة المكان في حقيقتها مرتبطة بكل هذه التغيرات، ليكون البحر عنوانا لعودة جديدة لهذا الوطن الضائع،كأنّه لشدة دلالته على بلادنا يستطيع اختزالها و تقليصها إلى عنوان واحد هو " البحر"نفسه،و يصبح ما يحدث للبحر دالا على ما يحدث للوطن عموما،و في ذلك يقول الشاعر أحمد شنة :

تكلّمْ ..
أنا منذ أن أصبح البحرُ ... لا يستفزُ الجسدْ
و منذ انحناءِ الجبالْ
ومنذ انهزامِ الصعاليكِ... و الأنبياءْ
و منذ احتراقِ الأمدْ
أنا منذُ أن أصبح البحرُ... أرجوزةً للرمالْ
و منذ الفرارِ الأخيرِ
لكلّ الأعاريبِ من صهواتِ أحدْ
أقاتلُ كي .. أستردّ البلدْ .

فالشاعر أحمد شنة أصيب بالدهشة و المفاجأة،عندما فقد المكان خصوصياته و سماته التي يتميز بها،بفقدانه أعز الأصدقاء و الأحباب في أزمة الجزائر في التسعينيات، فالفقد تجاوز الإنسان إلى المكان ، و لم يكن البحر إلا فضاء يدل على الضياع ، و العودة لن تكون إلا من خلاله، فمثلما ضاعت الجزائر من قبل عن طريق البحر ، سوف تعود في رأي الشاعر من جديد عن طريق البحر والقتال ، فالبحر عنده عنوان لعودة أكيدة.

بل إن الشاعر الجزائري يسبغ الصفات الإنسانية على هذا العنصر المكاني ، فمصطفى دحية يجعله عاقلا يشعر بالسعادة مثل الإنسان أو أكثر عندما يحاصره الملاحون ، ، بل هو الحب عند الشاعر حمري بحري ،و على خلاف الشاعر حمري بحري الذي

يحمل البحر عنده دلالة سلبية،يكون الحب عند الشاعر الأخضر فلوس بحرا بمفهومه الإيجابي؛وبأوجه متعددة،حيث يأخذ الشاعر من البحر بعض الصفات ليسبغها على حبه المتجدد الذي لا ينام،ليعطي الصورة الحقيقية له لمن يحب، و هي ظاهرة تتكرر كثيرا، إذ تأتينا من التقاليد الرومانسية فكرة الربط بين البحر و المرأة، و يبدو أن ذلك يعود إلى أنوثة ما كامنة في ملمس الماء و الخصوبة المرتبطة به، و الشبه الكبير بين البحر الحاوي للمخلوقات و رحم المرأة الحاوي للحياة ، فلنقرأ مع الشاعر الأخضر فلوس:

البحرُ لا ينامْ
والحبُ يا حبيبتي
كالبحرِ لا ينامْ
قريبًا من النيلْ
بعيدًا عن النبعْ

و على الرغم من عدم تحديد مكان هذا البحر عند معظم الشعراء الجزائريين ، فهو بحر جزائري ، و هو عند الشاعر عزالدين ميهوبي ، يختزن الكثير من الأسئلة و الاستفسارات التي يبحث الشاعر عن أجوبة لها عنده ، لعله يعوضه عن الغائب ، و يجري الشاعر شبه مقارنة بين خوف الأرض من البحر ، و رحيل الأسماك إلى البحر، فهو مخيف من جهة ،و مكان للجوء من جهة أخرى:

ناديتُ البحرَ ..
لماذا يخافك قحط الأرضِ
و قافلةُ الأسماكِ
تشد إليك زعانفَ تحملُ روحَ الماء ؟!
ناديتُ البحرَ..
ففاضَ الموجُ ..

كما يصبح البحر واعيا و مدركا لما يحيط به عند الشاعر الجزائري الشريف طلحي ،الذي يخاطبه و يرسل له التحية ، و يطلب منه فرصة للعبور، و كأنه حارس على الطرق المؤدية للحب ، لكن بحر الجزائر التي ضيعت قلبها في خضم النزق ،يحيل إلى الحزن و الألم، و إن لم يصرح الشاعر باسمها:

كلّ عامٍ .. و جرحُكَ واجهةٌ للأنينْ
كلّ عامٍ .. و وجهُكَ عاصمةٌ للغمامْ
و أفقك أرشيفُ حزنٍ جديدْ !!
و يا أيّها البحرُ مهلاً .. ،
لتمنحني فرصةً للعبورْ
إلى حب هاذي التي ضيّعت قلبها
في خضم النزقْ !

فعندما ترتبط تجربة الشاعر بالبحر يصبح هو الملهم و الموجه لهذه الشخصية التي تغترف منه ، فهو الصديق و العدو ، و القريب و البعيد ، و الملهم للإبداع الفني للشاعر ،يناجيه و يناديه ، و يخاطب ماءه وموجه، هو المملكة المانعة التي يهرب إليها دون رقيب،و لولاه لما رأينا هذا الكم الشعري في متننا الجزائري ؛فهو المثير للتجربة و المؤثر على الشاعر بطريقة أو بأخرى – مباشرة أو غير مباشرة- ، يحمل دلالة الاتساع والانبساط وحفظ الأسرار من جهة و الضيق و التقلب والحزن و الألم من جهة أخرى.

و من الشعراء الجزائريين الذين عاشوا تجربة البحر بطريقة مغايرة للسائد،و ابتعدوا عن الوصف الحرفي و الميكانيكي للبحر،الشاعر عاشور فني في ديوانه "زهرة الدنيا "عبر العديد من القصائد: "عرش الملح "،" و بعد"،" نجوى الشاطئ المكسور "...وقد جعل الشاعر نفسه كالبحر،فتقاسما معا التورط في الزرقة و الإبحار، و الثورة على النفس :

و يا أيّها البحرُ
كلانا تورط في الزرقةْ
خاضتْ مراكبهُ في اللهيبْ
و لم تحترقْ
كلانا تطرّفَ في عِشْقِهِ..
كلانا نزقْ
يفيضُ بما يتسرّب فيهِ
و يغرفُ ممّا تسرّب منه
و من ذاتِهِ ينبثقْ
كلانا يثور على نفسهِ
و يحطمُ شطآنه
و على رملهِ يستريحونَ حين يَرُقْ

لقد أخذ الشاعر من البحر جملة من الصفات ، و جعل نفسه ندا له ، و إن كان الاختلاف بينهما فهو اختلاف غير مؤثر ، لأن كلاهما يفيد الآخرين ،و قيمتهما لا تتحدد إلا بالآخر،فالشاعر جعل نفسه في مقام البحر، و أعطى لنفسه حق المقاربة ليبرز عظمته،إدراكا منه إلى أن الصورة لا تكتمل إلا بالبحر، لما يحمل في نفسه من قوة و تحد .

فالبحر عند معظم الشعراء ، هو ملجأ الحلم و الحقيقة ، و مادة تضاف إلى التشكيل الشعري للخروج بدلالات جديدة و متجددة،لأنه رمز للرحلة و المغامرة و البحث السندبادي ،و هو رمز للاتساع و اللانهاية و العظمة و السر اللامنتهي،و الحياة و الحب و اللقاء الجميل...،يلجأ إليه الشاعر ليصل الآخر ،وهذا الآخر غالبا ما يكون قلب أنثى ، علّ الرسالة تصل إليها ، و علّ البحر يعطي الشاعر الجواب الذي يبحث عنه منذ زمن بعيد، فالبحر رسول الشاعر الذي أرسله ، و هو الذي يعلم سر الفاتنة ،تصادق معه و جعله إنسانا واعيا يدرك ما يعانيه:

يا بحرُ يَمّم نحو جُرح الفاتنهْ
ازرعْ ترانيمَ الأمانِ بقلبِها
أمطرْ بأحلامِ الحياةِ أديمَها
إني أراهَا
فأرى الجرح يضّمها
يا بحرُ من أرّقها ؟
يا بحرُ من أغرقَها ؟

و قد استمد الشعراء الجزائريون صورهم المرتبطة بالبحر من التراث الشعري العربي،و من المخيال الجمعي ، و من الواقع الجغرافي و الطبيعي الجزائري و العربي الممتد من الماء إلى الماء ، ولذا " يندر أن نجد شاعرا عربيا قديما أو حديثا لم تنعكس في أشعاره نداءات هذا العاشق المتسرب بالزرقة أو هذا الفحل المضيء الذي يلقح الأرض و الريح بالمسرة فتعلن ساعة الإخصاب دقتها و يهزج الأزرق المخضر بالعنفوان معلنا أن اللانهاية و العمق و الحلم خواص و سمات تتجوهر فيها ماهيته"

فالبحر جزء بيئي هام من الطبيعة العربية و الجزائرية، وظفه الشعراء في نصوصهم ،و كأنه إنسان عاقل و واعٍ،يتحاور معه الشعراء ،و قد شملت الأنسنة كل مظاهر الطبيعة في الشعر الجزائري المعاصر ؛ وكان البحر من أكثر الأنماط المكانية التي أنسنت

و تحولت على أيدي الشعراء ، إلى كائنات تملك الحس و العاطفة و المشاعر . ولأن البحر كان بديلا لأمكنة كثيرة ،ولا يمكن تملكه فقد أصبح مزارا شعريا، و دواء لأمراضنا المستعصية على حد تعبير الشاعر الشريف طلحي :

آه لو تبصرُ عينُ الناظرين
أن للبحرِ حنايَا
تحتوي السّر اليقينْ
و مراياهُ التي قد أبصرتْني
ترصدُ الأدواءَ فينَا !
آه لو يَدْرِي الجناةْ ..
أن للبحرِ أريجًا
بَلْسَمًا يشفي جراحَ المْتْعَبِينْ !

فالبحر و ضع بيئي حتمي،تعامل معه الشاعر الجزائري بصور مختلفة، و جعله معبرا لذاته و لشجونه،و رمزا للظروف التي تمر بها الجزائر ،مقارنا بينه و بين النهر الذي يمد البحر، فيأخذ البحر رمز الكبير و النهر رمز الصغير ، لكن لا غنى لهذا عن ذاك. وقد تمثل هذه الصورة الشعرية الشاعر حسن دواس في قصيدة "غرور "، في حوار شعري بين النهر والبحر ؛ هذا الأخير الذي لا يستغني أبدا عن قطرات النهر، فهو ظامئ إليه دائما ، حاول الشاعر أن يبرز تلك العلاقة التلازمية بينهما في هذا المقطع الشعري الذي يقترب فيه من عالم القصة :

منذُ دهرٍ
و نهرُ المدينةِ في البحرِ ينسابُ مسترسلاً
ما انعطفْ
مرة قبّل الموجَ في وله و قالْ :
أيها البحرُ جئتك أحملُ كلّ عبيري معي
ضحك البحرُ مستهزئًا ثم أجاب
أنا هذا المدى
أنا هذا العبابْ
ثم أردفَ : ما ضرّني أن تجيء أيَا
قزمُ أو تنصرفْ
غضِبَ النهرُ ، غيَّر وجهتَهُ
قهقه البحرُ لا يرعوي و مضى ..
و تأججتِ الشمسُ في الأفقِ تمتصُ أعماقَه
قطرةً .. قطرةً .. في شغفْ
بعد صيف قصدَ الناسُ شاطئَه
وجدُوه نشفْ .

و يحمل المقطع دلالات إنسانية واضحة ، يمكن تفسيرها على عدة أوجه ؛و أبرزها حاجة الكبير للصغير،و أن المجتمع بجميع أبنائه ، و الدولة لا يقوم لها قرار إلا بالمشاركة الجماعية..

لقد اختلفت رؤية الشعراء لهذه المساحة المكانية التي تشغل الجزء الأكبر من الكرة الأرضية ، فالبحر حارس أمين لمعظم المدن الجزائرية ، و من أجله كانت المقاومة ،حتى لا يدنسه الأعداء، –من ناحية الرؤيا الجمعية – و هو الملجأ الأول و الأخير

للشاعر الجزائري–من الناحية الذاتية–بعد أن ضاقت عليه الدنيا بما رحبت ، فهرب إليه ليأويه و عله يجد عنده السلوى و السكينة.

و هو ما حدث للشاعر عثمان لوصيف، الذي استبدل المكان الضيق–الأرض– بالمكان الواسع–البحر– في خطاب شعري شفاف ينبض بالحياة والبحث عن استمرارها، ليتحول البحر عنده إلى طريق للخلاص أو إلى منفذ ينسرب منه:

واقفٌ عند الشواطئْ
في خشوعٍ و سكينهْ
أبتني فيها مرافئْ
و شراعًا و سفينةْ
واقفٌ ألهوُ بدمعي
إذْ جرى من مقلتيا
ها أنا قد ساقني الوجدُ إليكْ
جئتُ لما ضاقت الأرض عليا
آوني يا أيّها البحر لديكْ !

**٣–الوطن** : الوطن هو الهوية وليس الخريطة الجغرافية،و شهادة الميلاد لا تكفي للانتساب إليه ، هو المنفى في الداخل،و الأمل في الخارج، و البؤرة المركزية التي تستقطب تفاصيل الحياة ،فحبل الودّ موصول بالرغم من الشعور بالغربة ، و المنفى فيه ، لأن الشعراء يحملونه بداخلهم ، و معرفته الحقيقية هي معرفة الإنسان و الذات المتجذرة فيه، هذه المعرفة قد تتطلب زمنا طويلا للوصول إليها لتحقيق الذات في رأي الشاعر يوسف وغليسي :

زَمني في منأى عن كلّ الأزمانْ..
ما أغربَني في وطنٍ لا يَتَشَبّهُ بالأوطانْ...
فاليومُ الواحدُ فيهِ مثلُ أُلوف الأيامْ
و إذنْ...
كم يلزمني من عمرٍ في وطني
حتى أصبحْ إنسانْ ؟!

الغربة المكانية تحيط بالشاعر–وهي في الوقت ذاته غربة نفسية– ، فهو غريب في وطنه و اليوم الواحد في هذا الوطن مثل ألوف الأيام ، يتحول الزمن عنده من مفهومه المادي إلى مفهومه النفسي ، و يبقى الشاعر يتساءل عن الزمن الحقيقي الذي يلزمه ليعود لإنسانيته و يدرك ذاته الحقيقية ، فالنص يكشف لنا عن مأساة هذا الوطن بطريقة غير مباشرة، بطريقة شعرية معبرة تنقل الألم المتجذر و الألم الدفين في نفس الشاعر.

و إضافة إلى دلالة الغربة حملت القصائد المكانية الوطنية، دلالة التيه، و الفقدان، بعدما استبيح كل شيء و لم يبق إلا الوطن الجريح، يرجع إليه الشاعر الجزائري ليستريح و ليقر بالفاجعة و هو في رحلة البحث المستمرة لاسترداد الوطن مثلما فعل الشاعر علي ملاحي:

نحنُ اليتامى ... و الوطنْ
في كفِ سادتِنا وثنْ ،
من أين لي أجدِ الوطنْ ..
...يا موطني قد علموكَ العشق في
كلّ الجهات فما كسبتَ
من الهوى إلا مصيرًا شاردًا

ماذا تبقى من أصابعٍ ترشيها كي

ترى الدنيا نشيدًا واعدا ؟

يا موطني سد الشبابيك الطرية

و ارتقبْ ..

كن شاهدًا

ثم اعترفْ .. أنتَ البلادُ بلا بلادْ .

و لا يختلف الشاعر مصطفى محمد الغماري عن غيره من الشعراء الجزائريين الذين أشرنا إليهم سابقا من أمثال وغليسي و ملاحي –في لغة الضياع والبحث عن الأمل المفقود في أن تعود الأيام إلى سالف عهدها ، و في أن يجد الوطن البديل المغاير للوطن الموجود واقعا ، فالشاعر مصطفى محمد الغماري مثل غيره يكتب عن ذكرى ماضية علّها تعود ، و يعود الوطن كما كان عليه وطن الأحرار و الأشراف والجهاد في زمن نوفمبر الأخضر معتمدا في ذلك على المرجعية التاريخية و الثورية للمقارنة بين الأمس و اليوم و في هذا من الأبعاد السياسية و الوطنية والنفسية ما فيه، فالارتباط واضح، و النص الشعري يكشف عنه بجلاء :

أحببتُ يا وطني فيك جهادَ الجدود

في كلّ دربٍ دمٌ في كل شبرٍ شهيدْ

يموتُ كلّ هوى إلا هواكَ الجديدْ

أراه ملءَ الرّبا أراه ملءَ الحدودْ

أحببتُ يا موطني تكبيرَ أحرارِ

و الجرحُ لما ارتوى بالنورِ و النارِ

يَفُكّ عنك الأسى يا غربةَ الدارِ

حتى رأيتُ العدى أشلاءَ إعصارِ

فالشاعر يتوق إلى التوحد في الوطن و إلى الانصهار فيه ليغدو جزء منه ، بل ليغدو الشاعر هو الوطن ، و الوطن هو الشاعر للدلالة على الحب الكبير له و على الاندماج الكلي في السياق العام للوطن ، و هي سمة تكاد تكون مشتركة حتى عند الذين كتبوا معظم قصائدهم في المرأة، إذ تتحول المرأة عندهم إلى وطن أو إلى وطن بديل ،فالتوحد في الكينونة قاسم مشترك بين الجميع حتى ليصبح الشاعر هو الوطن كما هو عند الشاعر يوسف وغليسي الذي استعار التجربة الصوفية ليعبر عن العلاقة القوية التي تربطه بالوطن :

أنا أنتَ..و أنتَ أنا !

أهواك لأني منكَ ،،

و أنتَ مني

روحُك حَلّت في بدني..

أنا "حلاجُ" الزمنْ..

لكنْ،،

ما في الجُبّةِ

إلاك أيا وطني !..

وهو توق إلى مثل عليا ووطن متسامي ، وهي مشاعر إنسانية ،ظهرت بعد الخوف من فقد الوطن جراء الأحداث التي مرت بها الجزائر في التسعينيات،وقد اشترك في تلك المشاعر العديد من الشعراء و اختلفوا في طريقة التعبير عنها.

فالشاعر عبد الوهاب زيد مثلا كغيره من شعراء مرحلة التسعينيات، الذين تضمخت لغتهم بسمة الحزن ، أخذ الوطن عندهم دلالة الضياع و اللامعنى و اللاجدوى لأن السلام قد غاب و ذهب الحمام و انتشرت العناكب التي لم تصبح هي حامية المكان بل أصبحت رمزا للخراب و لفراغ المكان :

إنني لا أنامْ
دُون كل الأنامْ
لا لشيء سوى
أنني من بلادٍ
تحب العناكب لكنّها
لا تحب الحمامْ

و بمقابل هذه اللغة الحزينة و النغمة اليائسة شاعت – على طرف النقيض – دلالة الفرح و الغد المشرق ، و الأمل في يوم جديد ، و وطن الانتصار و النهوض من الكبوة مع الجيل نفسه من الشعراء، و كأن الشاعر بقلبين اثنين:

إن الجزائرَ من دمعي و من دمكم
و ألفُ ألفُ شهيدٍ باسمًا..سقطَا
إن الجزائرَ يا أحبابُ..
ما انكسرتْ
لكنّها انتصرتْ
و العقدُ ما انفرطَا

فالشاعر عزالدين ميهوبي في كل نص يكتبه يبرق للقارئ بهذا الأمل ، الذي يجب علينا أن نؤمن به و نسعى إلى تحقيقه ، و إن لم نستطع فيكفي الأمل–على طريقة الشعراء– ، لأنه طريق الانتصار و العودة من جديد ، لأن المنهزم من الداخل لا يستطيع أن يستمر في الحياة :

سَتطلع رغم المواجعِ
شمسُ الوطنْ
فلا تيأسنْ
ستبقى الجزائرُ شامخةً مثلكم
رغم أنفِ الفِتَنْ
و سيكبرُ فينا الوطنْ

***خاتمة*:**

فالمكان الشعري لا يرتبط بالدلالة الحرفية و التاريخية و الدينية فهو مكان لغوي يحتمل كل شيء ، و وروده أو عدمه لا يعطي للنص شعريته ، فهو ليس معطى بسيط ، بل هو معطى مركب غير منته متواصل التأثير باختلاف الأزمنة، فالمكان قبل أن يتعامل معه الشعراء على أنه فضاء نصي وطريقة تشكيلة لإضفاء أكثر الدلالات على النص ، هو النص بحد ذاته و الركيزة الأساسية التي أنبنى عليها .

***ملاحظة: للمحاضرة مصادر و مراجع***